عن قبول العلاج إلا بمشقة شديدة وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله وعند الناس وهو أعظم
من قدر المال والجاه بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال كعب للعلم طغيان
كطغيان المال ولذلك قال عمر رضي الله عنه العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم
نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر
إلا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أن حجة الله تعالى على أهل العلم أوكد وأنه يحتمل من الجاهل حجه
الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم وأن من عصى الله على معرفة وعلم فجنايته أفحش إذ لم يقض حق
نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق
أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون ما لك فيقول كنت آمر
بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله تعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال تعالى
مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا أراد علماء اليهود وقال تعالى
في بلعم بن باعوراء واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها إلى قوله فمثله كمثل الكلب قال ابن عباس
رضي الله عنه أوتي بلعم كتابا فأخلد إلى شهوات الأرض أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أي
سواء آتيته الحكمة أو لم أوته فلا يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع من
شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه فمهما خطر للعالم أعظم قدره بالإضافة إلى الجاهل
فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من
قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ
وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا فكم من عالم يشتهي في القيامة سلامة الجهال والعياذ
بالله من ذلك فهذا الخطر يمنع التكبر لأنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه فكيف
يتكبر من هذا حاله فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عنده نفسه من الصحابة وقد كان بعضهم يقول
يا ليتني لم تلدني أمي ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول يا ليتني كنت هذه التبنة كل ذلك
خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الذباب مع علو أحوالهم فكل من الذي
هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور
فشرع في بعضها وترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها هل أداه كما

كما يرضى مولاه أم لا فأخبره مخبر أن مولاه قد أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ما هو فيه عريانا
ذليلا ويلقيه على بابه في الشمس والحر زمانا طويلا حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به الجهد
أمر برفع حسابه ونقش عن أعماله ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب مؤلم وقد علم أنه قد
فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري أنه من أي الفريقين يكون
فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وبطل كبره وظهر خوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل
تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب به فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه
من أوامر الله بجنايات على جوارحه وذنوب على باطنه من الرياء والحسد والعجب والنفاق
وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره بلا محالة **الأمر الثاني**
أن العالم يعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله فقد أحب
الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك
قدرا فلا قدر لك عندي فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه وهذا يزيل الكبر عن
قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا أو يتصور ذلك وبهذا أزال الكبر عن الأنبياء عليهم السلام
إذ علموا أن من نازع الله في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله أن يستصغروا أنفسهم حتى
يعظم عند الله محلهم فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لا محالة **فإن قلت**
وكيف يتواضع للفاسق والمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف
يجهل فضل العلم والعبادة عند الله وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن
خطر الفاسق والمبتدع أكثر فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة بل لو نظر
إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم
ويختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة والكلب أعلى رتبة ممن هو عند الله
من أهل النار وهو لا يدري وكم من مسلم نظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل إسلامه فا ستحقره
واستحقره للكفر وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر رضي الله عنهما فهذه
فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا للخاتمة فأحق العبد ألا يتكبر
على أحد بل إن نظر إلى جاهل قال إنه عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني وإن نظر

٥٢

Copyright © King Saud University